

أبو تمام

في صنعة الشعر

للدكتور :
زكريا عبد الرحمن صيام
كلية الآداب - جامعة الرياض

هو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مر بن سعد ابن كاهل بن عمرو بن عدي بن يغوث بن زبد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان . عرف بذكائه وحضور بديته وقوة عارضته . وكان يحد في أثر المعنى حتى يصل منه إلى ما يعسر على غيره تناوله . فاتفرد بمذهب شعري صار فيه إماماً متبوعاً ، وشهرته حتى قيل : « هذا مذهب أبي تمام » . كما نظم في سائر الأغراض ، لكن المديح انتعجج بحاله عنده أكثر من غيره لا تملأاً للمدحجين أو انتظاراً لما لديهم من عطايا ، وإنما إعجاباً بهم ، مما أكسب مدائحه قوة ومنعة فلما توفرت لغیره من الشعراء .

وأورد قصيدته الدالية التي مدح فيها خالد الشيباني تقديراً منه لمواقف هذا الرجل ، حيث عالج فيها موضوعات عدة ، واشتملت على خصائص أبي تمام الفطنة والنسبة ، وهي من عيون القصائد في تراثنا العربي الأصيل :

ما لكثير الحمى إلى عقدة ؟
ما بال جرعائه الى جرودة ؟ (١)

ما خطبه ؟ ما دعاه ؟ ما غاله ؟
ما ناله في الحانو من خرودة ؟ (٢)

السالكات امراً عزيزة
بالبحر ، والنافحات في عقدة (٣)

لجئن ظلي لمن من الذعر وظلاً من نهوه وزده (٤)

فهن يخرن عن يلهبة العيش ويسألن منه عن جحده (٥)

ورب المني انصب قد
رشت ما لا يذوب من برودة (٦)

قلنا من الرين نافع الذوب إلا أن برودة الأكباد في جسده (٧)

كالخوط في القد والعزلة في البهجة وابن الغزال في عكده (٨)

وما حكاؤه ولا نعم له
في جبهه ، بل حكاؤه في جبهه (٩)

فالربع قد عرني على جدي
ما تح من سهله ومن جلده (١٠)

لم يبق شر الفراق منه سوى
شره من ثوبه ومن وثبه (١١)

سأخبرك الخرق بانين خرقاء كال
هنيئ إذا ما اتحم من نجده (١٢)

مقابل في الجدول صلب القرا
لوجك من عجبته إلى كنده (١٣)

نايكو ، نهده ، مداعيله ،
ملمويه ، مخزنله ، أجده (١٤)

إلى المندى أي يزيد الذي
يصل غمر الملوك في نمدته (١٥)

ظل غفاه يجه زائره
حب الكبير الغير من ولده (١٦)

إذا اتاخوا بيابه أخذوا
حكنيهم من لسانه وبيده (١٧)

من كل لهفانه زدت في أود الأموال حتى أقمت من أوده (١٨)

منظر حل من بني منظر
بيث حل الطراف من عده (١٩)

قوم عدا طارف المديح لهم

وَوَسَّعَهُمْ لَاتِجَ عَلَى ثُلُودِهِ (٣٠)
 فَهُمْ يَمُوتُونَ الْخَيْرَةَ فِي
 بُرُوجِهِ وَالْأَنَامُ فِي بُرْدِهِ (٣١)
 لَا يَلْدَبُونَ الْقَتِيلَ أَوْ يَأْتِي الْحَوْلُ لَهُمْ كَامِلًا عَلَى قُوْدِهِ (٣٢)
 إِلَاءَ مَجْدٍ مَلَأَ بُيُوتَكَ فِي
 صُرْعِهِ لِلْعُلَى وَفِي زَيْدِهِ (٣٣)
 وَهَضَبُ عِمْرٍ نَجْرِي النَّاحَةَ فِي
 حُدُودِهِ وَالْإِلَاءُ فِي صُعْدِهِ (٣٤)
 يَغْمُ لَوَاهِ الْحَمِيسِ أَتَتْ بِه
 يَوْمَ حَبِيبٍ عَلَى الْفُحَى أُودِيَتْ (٣٥)
 جَلَّتْ عُنَابًا بِضَاءُ فِي حُجْرًا
 سَيِّئِ الْمَلِكِ طَارَتْ مِنْهُ وَفِي سُدُودِهِ (٣٦)
 فَشَاغِبَ الْجَوِّ وَهُوَ مَسْكُوتٌ
 وَقَاتِلَ الرِّيحِ وَهِيَ مِنْ مَدِيدِهِ (٣٧)
 وَمَرَّ نَهْلُهُ ذُوَابِنَاءُ عَلَى
 أَسْرِمَتَيْنِ يَوْمِ الْوَعَى جَبِيدِهِ (٣٨)
 تَحْمِلُ أَقْبَاؤُهُ عَلَى مَلِكٍ
 بَرَى طِرَادَ الْأَهْطَالِ مِنْ طَرْدِهِ (٣٩)
 نَالَ بِعَارِي الْقَنَا وَلَا يَسِي
 مَجْدًا لِدَانِي الْجُوزَاءُ عَنْ أَمْدِهِ (٤٠)
 يَغْلَمُ أَنْ لَبَسَ لِلْعُلَى لَقَمٌ
 قَصْدٌ لِمَنْ لَمْ يَطَأْ عَلَى قَصِيدِهِ (٤١)
 تُفْصِرُ نَارُهُ فِي قِرَى وَوَعَى
 مِنْ حَدِّ أَسْبَابِهِ وَمِنْ زَيْدِهِ (٤٢)
 مُشْنَلِيهِ الصُّدْرَ وَالْجَوَانِحَ مِنْ
 رَحْمَةٍ مَمْلُونَيْنِ مِنْ حَبِيدِهِ (٤٣)
 بِأَعْدُ مِنْ رَاحَةِ إِثْقَالٍ وَيَشْتَقِي لَيْلِي الزَّمَانِ مِنْ نَادِيهِ (٤٤)
 فَهَر لَوْ اسْتَطَاعَ جِلْدُ أَسْعَدِهِ
 لَخَرَّ غَضُوبًا مِنْ يَوْمِهِ لَعْدِهِ (٤٥)
 إِذْ مِنْهُمْ مَنْ يَعْدُ سَاعَتَهُ الطَّلَقَ جِبَارًا لَهُ عَلَى أَيْدِيهِ (٤٦)
 الْوَيْ كَثِيرَ الْأَسَى عَلَى سُودِدِ الْعَبَسِ قَلِيلَ الْأَسَى عَلَى رَقْدِهِ (٤٧)
 قَرِيعَةُ الْعَقْلِ مِنْ مَعَايِلِهِ
 وَالْقَبْرِ فِي الثَّائِبَاتِ مِنْ عُودِهِ (٤٨)

كالبدر حسناً وقد بُعَاوِدُهُ

عَبُوسٌ لَيْسَ الْعَرَبِينَ فِي عَبِيدَةٍ (٣٩)

كَالشَّيْءِ يُعْطِيكَ مِلَّةَ عَيْتِكَ مِنْ

فِرْنَسٍ نَارَةٍ وَمِنْ رُئِيدَةٍ (٤٠)

نَا بَعِ أُنْثَى وَفَاعَةُ الرُّؤُوسِ مِنْ

عَوْرَةٍ ذِي تَبَرُّبٍ وَمِنْ قَتِيدَةٍ (٤١)

وَلَا تَنَاسَى أَحْبَابَهُ فِي بَسَنِ

مَا كَانَ مِنْ نَضْرٍ وَمِنْ حَشِيدَةٍ (٤٢)

جِلَّةٌ أَتَاهُ وَقَسْدَانِهِ

وَالثُّمُّ مِنْ أَرْزِهِ وَمِنْ أَدْوَةٍ (٤٣)

أَتَرَنِي إِذْ جَمَلْتُهُ سَدًّا

كُلُّ أَمْرٍ لَاجِيٍّ إِلَى سَدِيدَةٍ (٤٤)

فِي غُلَّةٍ أَوْقَدْتُ عَلَى كَبِدِ الْـ

سَائِلٍ نَاراً تَغِيَا عَلَى كَبِيدَةٍ (٤٥)

إِيَّاهُ شَرِّبِ الْقَوَى رَأَى جَدَّ الْـ

مَشْرُوفٍ أَوَّلٍ بِالطَّبِّ مِنْ جَدِيدَةٍ (٤٦)

وَجَلَّتْهُ زَالِراً فَجَاوَزَ فِي الْـ

أَخْلَاقِ مِنْ مَالِهِ إِلَى جُدِيدَةٍ (٤٧)

فَرَحْتُ مِنْ عَيْدِهِ وَلِي رَقْدٌ

يَسْأَلُهَا الْمُتَعَفِّفُونَ مِنْ رَقْدَةٍ (٤٨)

(التفسير اللغوي)

١ — غِلَّةُ الرَّمْلِ : مَا تَعْلَقُ بِهِ . وَأَهْلُ بَدَايَا الْقَافِ يَقُولُونَ : عَقْدُ الرَّمْلِ ، الْجُرْعَاءُ : أَرْضٌ فِيهَا رَمْلٌ ، جَرْدُهُ : يَفْتَحُ الرِّاءَ يَحْمِلُ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الْأَرْضُ لَا نَبَاتَ فِيهَا ، وَالْآخَرُ : مَوْضِعٌ بِهِتَهُ ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ النَّابِغَةُ وَالذَّيْلَانِي فِي قَوْلِهِ :

وَالرَّائِكُفَاتِ ذُبُولُ الرِّسْمِ فَاتَّعَمَّهَا

بِسَرْدِ الْفَوَاجِرِ كَالْفِرْلَانِ بِالسَّجَرِ

وَمِنْ قَوْمٍ فِي تَكْنِينِ قَافٍ عَقْدُ مَا رَوَى عَنْ شَاعِرِهِمْ :

أَتَذَكَّرُ أَمْ تَنْسَى لِبَالِيبِنَا الْـ

بِقَسْفِ الْقَوَى سَقِيّاً هُنَّ لِبَالِينَا

وَلَعَلَّهُ — هُنَا — اسْمُ مَوْضِعٍ قَرِيبٍ مِنَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَمْرُ الْقَيْسِ فِي مَطْلَعِ مَعْلَقَتِهِ « سَقَطَ الْقَوَى » :

قَلْبَا لَيْتَكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلُ

بِسَقَطِ الْقَوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلِ

٢ — الْخَطْبُ : يُرَادُ بِهِ الشَّانُ . فِي الْحِصَانِ : أَيُّ فِي مَقَارِقَةِ الْحِصَانِ فَحَذَفَ الْقَافَ وَأَبْقَى الْقَافَ

إِلَيْهِ . الْخَرْدُ : جَمْعُ خَرِيدَةٍ وَأَرَادَ الْمَرْأَةَ الْقَائِلَةَ بِالْجِوَالِ .

٣ — عزمته : ما اعزم على تركه من الصباية . البحر : أي حديثي القنان وبراعتي . النافات في عقد : كائين يحل عقد صيره وحلمه فيلذذ إلى أماته .
 ٤ — ذؤ : لعب ، وفيها لذات : رقى ، مثل دم ، و ذؤى ، مثل رضى ، و ذؤن ، مثل شطن .
 ٥ — بلهية العيش : سته ورغده . وهو من قوم : عيش أهله . إذا كان صاحبه ناعم اليال ، والنون والياء في « بلهية » زائدتان . قال أحدهم :
 يا حبيبا الشرخ وعيش أهله

لاذو الشيبو والكبيبر الأبقلة
 الجعد : ضد البلهية وهو يؤس العيش وشده . وقد جاء في اللسان — مادة جعد — قوم :
 لن سمعت أم الحسبيتين رائدا

لقد غنيت في غير يؤس ولا جعدي
 ٦ — الأمل : الأسم الثنتين . يقال : علي ألى وطية لياه . والعرب تستحسن سمة السنين لأنها تعمل على وضوح الأسنان . الأنتب : المرأة ذات القم العيق الرائحة . الرد : يفتح الياء والراء كنى به عن الأسنان الناعمة البيضاء .
 ٧ — قنأ : يريد الفتحة بين الأسنان . واقلت لغويا : نقرة في صخر يصنع فيها ماء المطر . والغالب عليها الثابت . كقول الشاعر :

على الله أعلى تسلعي غنفت به
 وقنأ أقرت ماء قيس بن عاصم
 الذوب : الرين . الجند : يفتح الجيم والهم الأسنان .
 ٨ — الحوط : الغصن وجمعه خيطان ، واستعمل ذلك في وصف الرجل حين يكون في ريعان شبابه فيقال : رجل حوط ، أي كالغصن لطافة وحوية . العزلة : ترفع بعضهم غطبا الطية . والعزلة من أسماء الشمس كما جاءت في قول ذي الرمة :

فأنسرت العزلة رأس حوضي
 وأرقبهم فأأفلى قبلا
 ويقال : جث غزاة الضحى : أي لدى ارتفاع الشمس في الأفق . وفي اللسان — مادة غزل — يقول
 الرازي :

دعت ملبى دعوة هل من في
 يسوق بالقوم غزالات الضحى
 فقام لا وان ولا زت السوى

أما قول أبي تمام : « ابن الغزال » فأراد به الغزال بعينه . وإنما أتى بلفظ « ابن » ليعظم له الوزن .
 ٩ — حكاة : أشبه . الجهد بكسر الجيم : العتق الطويل . ومن أتت العتق قال : عتق جدها .
 وللمذكر يقال : عتق أبجد . جده يفتح الجيم والياء : الجمال والحسن .
 وكثر كحيد الريم ليس بفاحش

إذا هي نصته ولا يعطل
 ويقول مجون لبي في مخاطبة الطية :

أيا شبه ليل لن نراعي ، فإني
 لك اليوم من وحشية لصدقي
 فعبناك صباها ، وجهدك جيدها

سوى أن عظم الساق منك دقيقين
 ١٠ — لقط ، جلد ، في النظر الأول من البيت بمعنى : تصوير وتجلد . وفي الشطر الثاني بمعنى الأرض

من الجرفاء العظيمة : عَرَبِي : غُلْبِي . ما مع : بتشديد الحاء ما اندثر وبلي . أي ما بلي من سهل الربع ومن أرضه العظيمة .

١١ — نَزَى اللَّيْث : حَفَرًا يَحْمِلُونَهَا حَوْلَهُ مِنْهَا مِنْ دُخُولِ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ إِلَيْهِ . وَمِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا ارْتَحَلُوا أَنْ يَتَرَكُوا النَّوْىَ بِحَالِهِ وَالْوَتْدَ وَالْأَتَاثَ لِأَنَّ الْعَرَضَ مِنْهُ يَسِيرُ . وَنَسَبَ النَّسْرَ لِلنَّوْىِ وَالْوَتْدَ لِأَنَّهُ لَا يَأْتِسُ بِهَا إِلَّا بِوُجُودِ أَهْلِهَا .

١٢ — سَأَحَرَقَ : سَأَقْطَعَ وَأَجْتَازَ . الْحَرَقُ : مَا اتَّسَعَ مِنَ الْأَرْضِ . الْحَرَقَاءُ : نَائِقَةٌ تَسْرِعُ السَّيْرَ فَتَنْفَعُ يَدَيَهَا . وَابْنُ خَرْقَاءَ : جَمِلَ تِلْكَ النَّائِقَةُ .

ومثل هذا قول النابغة الذبياني :

وَأَقْطَعَ الْحَرَقَ بِالْحَرَقَاءِ قَدْ جَعَلَتْ

بِحَسَدِ الْكِلَالِ تَنْكِيَّ الْأَيْمَنِ وَالشَّامَا
الْهَيْبِ يَنْفَعُ لِمَاءَ وَسُكُونِ الْيَاءِ : ذَكَرَ الْعَامَ . التَّجَدُّدُ يَنْفَعُ النَّوْنَ وَالْجِيمَ : الْعَرَقُ الْكَثِيرُ .

١٣ — مُقَابِلِي : أَيُّ أَنَّ ذَلِكَ الْجَمْلَ قَدْ تَنَزَّى نَسَبُ أَبِيهِ وَأُمُّهُ فَهُوَ عَرِيْقُ الْأَمَلِ . الْجَدْلِي : مِنْ فِعْلٍ الْإِلِيلِ الْكِرَامِ . الْقَرَا : عَلَى وَزْنِ عَصَا يَرِيدُ الظَّهْرَ . لَوَحَتْ : أَكْثَرَ لَحْمَهُ . الْمَجْبُ : أَصْلُ الدَّنْبِ . الْكَتْدُ : مَعْقِدُ الْكَتِفَيْنِ .

١٤ — تَامَكُهُ : الْفَسِيرُ يَهْوِي إِلَى « الْقَرَا » . وَالتَّامَكُ : السَّامُ الطَّوِيلُ . الْيَدُ : الضَّخْمُ الْمَرْتَفِعُ . الْمَلْدُومُ : الْفَتَحُ يَنْفَعُ إِلَى بَعْضٍ . وَمِثْلُهُ فِي الْمَعْنَى الْمَدَاخِلُ . الْخَزَلُ : التَّنَصُّبُ . الْأَجْدُ : يُقَالُ : نَائِقَةُ أَجْدٍ أَوْ مَوْثَقَةُ الْخَلْقِ . وَجَمِلَ أَجْدُ ، فَهُوَ لِلْمَذْكُورِ وَالْمَوْثَقِ . وَإِذَا اسْتَعْمَلَهَا أَبُو نِجَامٍ هَذَا لِلْمَذْكُورِ فَقَدْ سَقَى النَّابِغَةَ إِلَى اسْتِعْمَالِهَا لِلْمَوْثَقِ فِي قَوْلِهِ :

هَلْ تَسْلُفُ لَهُمْ حَرْفٌ مُفْرَسَةٌ

أَجْدُ الْفَقَارِ وَإِدْلَاجٌ وَلَهْجَبَرٌ ٢
١٥ — قَوْلُهُ : « إِلَى الْمَذْيِ » مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : « سَأَحَرَقَ الْحَرَقَاءَ » أَيُّ سَأَحَرَقَ الْحَرَقَاءَ إِلَى الْقَدَى أَوْ يَزِيدُ بِعَمْرِ هَذِهِ صِفَتِهِ . الْقَمَرُ : يَنْفَعُ الْقَيْنَ وَسُكُونُ الْجِيمِ الْكَثِيرُ . التَّجْدُ : يَنْفَعُ التَّاءَ وَالْجِيمَ الْقَبِيلُ .

١٦ — عَفَاةٌ : جَمْعُ عَافٍ وَهُوَ طَالِبُ الْعُرُوفِ . حُبُّ الْكَبِيرِ : مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى قَاعِلِهِ وَيُرِيدُ حُبًّا مِثْلَ حُبِّ الْكَبِيرِ لِلصَّغِيرِ مِنْ أَوْلَادِهِ .

١٧ — أَنَاخُوا : نَزَلُوا عَنْ دَوَابِهِمْ يَنْتَظِرُونَ عَطَايَاهُ .

١٨ — الْأَوْدُ : الْأَعْوَجَاجُ . زَدَتْ فِي أَوْدِ الْأَمْوَالِ : أَيُّ زَدَتْ فِي يَدَيْهَا مِنْ أَجْلِ الْأَخْرَجِينَ . أَفَتْ مِنْ أَوْدَةٍ : أَصْلَحَتْ حَالُ الْفَتَاحِ .

١٩ — مَسْمَطَرٌ : يُطَلَبُ لِحْطُهُ كَمَا يُطَلَبُ لِلطَّرِيقِ مِنَ السَّحَابِ . بَنُو مَطَرٍ : قَوْمُ الْمَدَوَحِ . الطَّرَافُ : بَوَازِئُ كِتَابِ الْقَبَةِ مِنْ أَدَمَ . قَالَ طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

رَأَيْتُ بَنِي عُجْرَاءَ لَا يُسْكِرُونَنِي

وَلَا أَصِلُ هَذَاكَ الطَّرَافَ لِلْمَدَدِ
٢٠ — الطَّرَافُ : وَزْنٌ قَائِلٌ هُوَ الْهَالِ الَّذِي أَحْدَثَتْ أَنْتَ وَلَمْ تَرَكَ عَنْ أَبَائِكَ . وَسَهْمٌ : عَلَامَتُهُمْ . الْقَدُّ : جَمْعُ تَلِيدٍ وَهُوَ الْقَدِيمُ .

٢١ — يَمْسُونَ : يَنْتَظِرُونَ فِي مَسْتَبِيمٍ . الْبَحْتَرَةُ : يَرِيدُ يَنْبَحَثِرُونَ . الْبُرُودُ : جَمْعُ بُرْدٍ بِضَمِّ الْيَاءِ وَسُكُونِ الرَّاءِ هُوَ الثَّيَابُ الْعَالِيَةُ الْخَمِيصَةُ . الْبُرْدُ : بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحُ الرَّاءِ مَا كَانَ تَحْتَهُ زَهِيدًا .

٢٢ — الْقَوْدُ : يَنْفَعُ الْقَافَ وَالْوَاوُ أَصْلَهُ اقْتِبَادُ الْقَاتِلِ إِلَى أَهْلِ الْقَتْلِ لِأَعْدَائِهِمْ بِأَرْهَمِهِ مِنْهُ . لَكِنَّهُ أَرَادَ النَّارَ نَفْسَهُ .

٢٣ — الصَّرِيحُ : الذِّينُ الْخَالِصُ الَّذِي لَا رَغْوَةَ فِيهِ . الرَّيْدُ : يَنْفَعُ الرَّايَ وَالْيَاءَ الرَّغْوَةَ . وَهَذَا ثَمَرَةُ الْجِدِّ .

- ٢٤ - المظب : ما ارتفع من الأرض . الحدود : راجع ١٠٠ . بني الاحدار من عالج . الضعد : على وزن كتب أراد به القطر من أرض إلى أهل .
- ٢٥ - الخبيس : استعمله . الكلمة مرتين في البيت نفسه . أراد بالأول الجيش العظيم والثانية يوم الخبيس أحد أيام الأسير . الأقد : يفتح المزة وكسر القاء السرج .
- ٢٦ - العقاب : من الطيور خارجة . خبترات : بضم الخيم حبرة وهي الناحية . السد : مفردها سدّة أي الباب .
- ٢٧ - الصير للشر في « شارب » وفي « قاتل » يعود إلى « التواء » التشبه بالعقاب .
- ٢٨ - نيلو : تفسر . فؤادها : أراد ما أسبل من جانب . لثن : هنا ما ظهرت من كل جوانبه . جسده : الجسد بوزن الكتاب هو الزعفران .
- ٢٩ - الأضواء : جمع في « وهو الظل » . الطراد : القتال . الطرد : يفتح الضاء والراء يعني الصيد .
- ٣٠ - عاري النسا : يريد الزمان التي لا تحلق فوقها الرايات . لابه : أي الزمان التي تحلق فوقها رايات المقاتلين . تداني : أصله تداني فعطف إحدى التامين أي تفسر .
- ٣١ - التعم يفتح اللام والظاف : الطريق الواضح . قصد يسكن الضاد يعني قصد . قصد : بضم قطع جمع يقصد وهي الكسرة من الزمان . يقول : إن مدوحه يعلم أن ليس للجنة من سبل إلا بأن يضأ على كسرات الزمان . كتابة عن شجاعته . وغريب من هذا بته الذي يتألم فيه الخليفة المتعصم قاتلاً : بعثت بالسراصة السكري فسلم نهرها
- تسلسل إلى على جسر من الشعب
- ٣٢ - تاراه : يريد تار الضيافة وهذه التكرم . وتار الحرب كتابة عن قوته .
- ٣٣ - التفسير في « مخلوئين » يعود إلى الصدر والجوارح .
- ٣٤ - يس الزمان : قصته وشدة . التأد : الرضاء والسعة .
- ٣٥ - استطاع : استطاع . حذف التاء ليستقيم له الوزن . حر : قطع .
- ٣٦ - منهم : من طائي معروفه . ساعة الطلق : أراد ما هو فيه من الدعة والسعة . أبده : بقية حياته .
- ٣٧ - « الأسي » يفتح المزة : الخزن . و « الأسي » بضمها : شدة الزمان . فهو كثير الاهتمام بالسود والجد قليل الاهتمام بتكتيس الأموال ووقرها .
- ٣٨ - القرعة : يريد الذكاء والبطنة . المعقل : الحصون . مفردها معقل .
- ٣٩ - عید : وزن جعل يفتح العين والراء والياء بمعنى الألفة والكبرياء .
- ٤٠ - فرد السيف زبدة وهي مواد في السيف مثل الكلف . وكفى بالفرند والريد غير المدفوع وشرة .
- ٤١ - تاه أنسى : أراد تاه لا أنسى . فحذف « لا » لعلم السامع . وكثيراً ما كانت العرب تحذف حرف التي بعد القسم . مثل قول امرئ القيس :
- فلنت : بين الله أبرح فاصداً
- ولو قطعنا رأسي لسديك وأوصالي
- أي لا أبرح . ومنه قول عبد الله بن قيس الرقيات :
- والله أبرح في مقدمة
- أهدى الجيوش على شكنبه
- حتى أنجمهم بإحوتهم
- وأسوق لسوتهم بسوتهم
- يريد : والله لا أبرح .

ومثله قول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي:

الموراء : الكلبة القبيحة ، الثوب : النجاسة ، القند : باطل القول .
 ١٢ - ذي بن : أراد صاحب ابن ، حلف الألف واللام إذ كانت العرب تحلفها مع « ذى » ،
 ولي حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله : « يطلع عليكم الساعة خير ذي بن » يعني جرير ابن
 عبدالله الجعفي . الحشد يفتح الشين : هنا الاجتهاد في جمع القول الصائب .
 ١٣ - الجلة : بكسر الجيم مفروها جبل وهو العظيم . أنمار : أي قبيلة . يزعم بعض السابئين أنها من
 قبائل اليمن القحطانية ، ويزعم آخرون أنها من العرب العدنانية بدليل قول الكلب :
 أنمار وان رخصت أنوار

٢٤ — جعلك مسلماً : يروى : جعلك أليماً بالشعر بك أى ملجئاً. وهذا كناية عن قوة المدح.

19 - الملة : يضم العين وتشديد اللام الحرقه ، حرفي رواية ، في ساعة .

٤٧ - الأخلاق : جميع خلق ٩ يفتح الماء واللام - أراد هنا القديم من ماله . الجؤد : مفردة جديد وهو عكس الحق .

بشكين الفاء التي بمعنى العطاء. وجاءت الرقة بكسر فتح بمعنى : تابع القول . كما هو في بيت الناجية الذي خاطب فيه النيران من المنذر :

وَأَنْتَ تَأْتِيكَ الْأَعْيَادُ بِالسُّرُورِ

بهذا المطلع التقليدي في مقصوده ، المتحدث في شكله ، يستل أبي تمام قصيدته ،
تقليدي لأنه جرى فيه على عادة القدماء في ذكر الديار وسؤال الأطلال ، ومتحدث لأنه لم
يترسم خطاهم في تعداد مواقع المحبوبة ومتابعة ركبها ، إذ كان الشعراء القدامى يصورون من
خلال أسلوبهم ذلك وحشة الدار في نفوسهم ، وأثر ارتحال أهل الحى في قلوبهم ، بينما عمد
شاعرنا الى أسلوب عله أكد في تثبيت الصورة في الأذهان ، فضت زفراته في أسئلة متتالية
بين مدى الحيرة التي وقع فيها ، وكأنه لم ينالك مشاعره حين رأى ما حل بكيب الحسى من
بل وتغير حال ، فأسقط في يديه وانها لسانه بسنة أسئلة حشدها في البيتين الأول والثاني ،
هيات أن نعد جوابا شافيا .

العائد إلى مكتب المحاماة من قبل السيد المحامي

ولمّا استقرّ رأي عليّ الرضا عليه السلام في الإرجاع من العراق لم يستأجر حياً ، وإنما سافر ببداهة السكون إلى مكة

الجزء الثاني الموقع تحت تأثيره من جهة أخرى.

وكانت أمه من بيت قرشي . وهو بيت عربي عرف بالعلم وينتهي نسبه الى بني أمية .
وقد تولى الكثير من أفراد هذا البيت قضاء دمشق مدة طويلة . وقد كان جده لأمه يحيى بن
علي بن عبد العزيز المتوفى سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م علماً بالنحو والعروض الى جانب علمه
بالتفقه والحديث . تولى القضاء بدمشق مرة . وكان يتوب عنه فيه ابنه أبو المعالي (١) .
كما تولى حالاه (أبو المعالي محمد بن يحيى . وأبو المكارم سلطان بن يحيى) قضاء دمشق
وقد كانا على قدر كبير من العلم . وقد تفقه أبو المكارم على كبار العلماء مثل نحر المقدسى .
وارتحل الى العراق ومصر طلباً في الاستماع الى علماء الحديث . كما جلس أبو المكارم بالمسجد
الجامع بدمشق للوعظ والارشاد . فقد تحدث عنه ابن عساكر فقال : « انه كان واعظاً
طيب الصوت وكان لوعظه في بغداد شأن حتى أن أبا بكر محمد بن القاسم الشهرزوري حين
وصل الى دمشق ارسل رسولا يقول اشقت الى سماع القاضي أبي المكارم لاني سمعته بالعراق
وسأل اياه (اي والد ابن عساكر) حتى أجاب لانه كان قد ترك الوعظ (٢) .
وكانت اخته (اخت ابن عساكر) زوجة محمد بن علي بن محمد بن الفتح السلمي .
وبيت السلمي بيت علم ووجاهة . فقد كان لاخته ولدان علما هما أبو طالب الحسن وشرف
الدين وكانا ممن قرأ عليهما ابن عساكر التاريخ فيما بعد (٣) .
لقد كان هذه البيئة التي نبت وترعرع فيها ابن عساكر شأن كبير . فقد جمع افرادها
اطراف العلم واسباب الفضل . ومن ثم فقد وجد فيها الحافظ بن عساكر ما ساعده ورغبة
في العلم والمعرفة حتى غدا مؤرخ الشام وحافظ العصر (٤) .
فلم يكذب بليل الحافظ بن عساكر السادسة من عمره حتى اقبل على العلم برعاه أبوه
ويسمعه الصائغ اخوه . ثم اخذ يتردد الحافظ على كبار الشيوخ يومئذ فقرأ على سبع بن
قيباط . ويستمع الى أبي القاسم السيب . وأبي الفرج الصوري . وقوام بن زياد . وأبي
طاهر الحائلي الذين أخذ عنهم الحديث . كما انتفع بصحبة جده فأخذ عنه النحو والعربية ثم
يشارك في سنة المبكرة كما يشارك الكبار . كل ذلك وابن عساكر لم يبلغ الحلم بعد .
ولم يكف ابن عساكر بما حصل عليه في هذه السن المبكرة من العلم والمعرفة . بل رحل
في صباه الى الشرق رحلة دامت خمس سنين . فسمع بمكة . ومنى . والمدنية . والكوفة .
واصبهان القديمة . ومرو . ونيسابور . والشاهجان . وهرات . وسرخي . وطوس .
وبسطام . والري . وزنجان . وبلاد كثيرة في العراق وخراسان والجزيرة والشام .
ويبدو أن الحافظ بن عساكر كان قد اكتفى بمن أخذ عنهم من الشيوخ في هذا الجزء من
آسيا ولم يتعداها الى افريقية . فقد بلغ عدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخاً ومائتين امرأة ونيفاً .
ولعل أشهر من أخذ عنهم هو أبو سعد السمعاني الذي كان رفيقه في بعض رحلاته (٥) وغدا
الحافظ بن عساكر محدث الشام . ومن اعيان فقهاء الشافعية فقد قال عنه ابن خلكان (٦)
« كان الحافظ ابن عساكر فخر الشافعية وأمام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائهم . فقد
غلب عليه الحديث واشتهر به وبأبلغ في طلبه الى ان جمع ما لا يتفق لغيره . فصنف
التصانيف النفيسة وكان حسن الكلام على الاحاديث . معظوماً في الجمع والتأليف . لم ير
الا مشغلاً بعلم وعبادة . يحاسب نفسه كل لحظة ولم يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه من

والعطاء . ومن طبايعهم الصبر على الشدائد والشجاعة في موضعها ، فإذا قتل أحدهم اقتادوا القاتل وأخذوا ثأرهم منه ولا يكون قتلهم حتى يبرّ على الأخذ بثأره حول كامل ، وتلك مبالغة — لعمرى — من نسج خيال أي تمام الصانع الماهر في صناعته . بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيشيهم بالإثاء القباض بالبعد ، يوركت العلى في خالصه وزيده ، وكأنها تزدد بها عزة وفخاراً . وهم ذووا جانبين ، أحدهما سمح لين لمن أراد أن يعاملهم باللين والحنى ، والآخر خشن يبطشون به ويظهرون به من حاول قهرهم ومغالبتهم .

ويعاود الإلفات إلى أي يزيد قائلاً له : نعم لواء جيشك المظفر الذي رجعت به في ضحي يوم الحبس ، فإن من نظرة إلى ذلك اللواء وهو خفاق في أعالي الفضاء ، ظن أن عقاباً قد طارت به وحملت معها ، حيث شاغب الجو وهو مسكنه ، وقاتل الريح التي تعد بعضاً من مدده .

ومن ثم يتناول في وصفه الرماح والرايات تحقق فوقها يوم الوغى ، ويقول إن لواء أي يزيد تضطرب جوانبه من فوق ملك يرى منازل الأبطال هوية له وكأنه يطارد الصيد فلا يتردد في قتالهم . وقد نال هذا الرجل ما ناله من الجهد الذي تعجز عن بلوغ أمده الجوزاء في عليائها بواسطة الرماح تحقق عليها الرايات وأخرى لا تحقق من فوقها ، لم لا وهو يعلم علم اليقين أن لا سبيل في العلى إلا بالوطء على كسرات الرماح واقتحام الأعطار ؟

وهكذا يطول نفس الشاعر في تعداد مناقب ممدوحه ، مفرغاً بذلك تجربته الشعرية الرائدة في هذا الضال ، فيجعل له تاريخه إحداهما تضم في السلم والرخاء ، والأخرى في الحرب والانتقام من الأعداء ، لأنه جواد لا تطفأ ناره للضيف ، وشجاع يشعل نار الحرب بسيفه . ويأله من رجل بلغ ذروة الحلم والعطف . حتى أن صدره وجوانحه امتلأت رحمة بالذي امتلأ صدره وجوانحه حسداً له ، لأنه لا يعاقب المسيء بالإساءة وإنما بالعطف والإحسان . كما أنه ليس ممن يخلدون للراحة الجسدية ، ويغفلون عن مسؤولياتهم ، ولكنه يقتطع من راحته للإعداد لشغله ويدخر من وقت الرخاء ما يقبضه من يؤس الزمان وشدته ومن صفاته أنه معطاء لا يحد كرمه حد ولو استطاع أن يقدم لطالبي معروفه كل ما لديه من أموال وبعضاً من أعضاء جسمه لما تردد في ذلك ، ولا شك أن الناس مدركون استعدادده للسخاء ، حتى أن منهم من يحسب ما هو فيه من عطاء سبيل عتاداً له في بقية حياته وذلك اقتناعاً منه في أن أبا يزيد سيواصل عطاءه ويحود بما عنده وبالرغم من كثرة أموال الممدوح وتوفر رغد العيش ، فإنه يعنى بشيء أهم ويسعى جاهداً إلى تحقيق أكبر قدر منه ألا وهو السؤدد والجد . ولا غربة في ذلك فهو ذو رأي سديد وفكر نافع يسكن بنظرته الصائبة وتقديره الصحيح للأمور أن يدفع عن نفسه نائبات الدهر كما تدفع القلاع عن عمن يحمي بها . وإذا أجلت النظر في وجهه فتجده كاليد حسناً وجيلاً ، وقد يعاوده عباس أشبه بعبوس الليث في كبرياته وأنفته ، وهو كالسيف يملأ روثقه عنيك تارة ومن سواد ريده أخرى . وبذلك يجمع شخصه بين الخير والشر فيعامل الناس بما يستحق كل منهم ، وبعدى ذ يشم الشاعر أنه لا ينسى موقف ممدوحه من دفع الزور وباطل القول ، وكذلك فإن أحياء يمنية لمن تنسى ما كان من نصره في الحروب وإصابته مفاصل القول .

وفي خاتمة المطاف بين شاعرنا ما كان من المدح والثناء فيقول : **قربني من نفسه وأكرم خيالي إذ جعلته سنداً لي . وكل امرئ يلدأ إلى سنده فيتحصن به بالأمان حرقه نشأت في قرادي لا أقدر عليها ولكن قدر عليها أبو يزيد بما كان من فضله العجم ، حيث أثري إيثار رجل قوي الرأي حازمه يعلم أن تقديم العطية لمن لا يستحقها هدر لقيمتها ، وأمانان لقدرها ، وهو يحسن بأن معالجة المعروف وفعل الخير أولى من معالجة جسده حرصاً منه وإيماناً في إهداء الخير للناس ، وحبها جاءه الطائي زائراً جاوز به الأموال القديمة إلى الحديثة ولم يتردد في اصطناع الأيادي البيضاء . حتى راح الشاعر من عنده وهو متقل بالمعطيات التي اعتاد طالبو المعروف أخذها من أبي يزيد .**

آثار الصنعة الشعرية في القصيدة :

على أحد لا ينكر أي تمام على زمام صنعة الشعرية ، التي ميزته عن سائر شعراء العرب — قدما وحديثا — فهو إلى جانب موهبته الفذة وطبعه الأصيل ، حاذق الصنعة ماهر بدقتها ، بل قد يتنصر لجانب الصنعة ويغلبه على غيره . ولا نشط في رأينا إذا قلنا إن ذلك يكون على حساب المعاني في أحيان كثيرة .

والقصيدة التي بين أيدينا نموذج حي يتحدد خصائص أي تمام القبة لأنه أفرغ خلالها تجربة عريقة عاش وقامها ، وبذلك فإنه يصدر عن عاطفة صادقة إلى حد بعيد ، وما نراه من دقة افتتانه بشعره ومعانيه في صياغته أسلوبه ، يرجع إلى حرص شاعرنا على توفير كل الإمكانيات التي تخدم الصورة اللاتفة بنظرته التحليلية للأمور . ولتكون أكثر حركة وحيوية وشاهدنا على ما نقول بيتاه — الرابع والخامس — اللذان يهتدون بهما معادة الحسان ، حيث عمد إلى جعلهن يلبسن ظلين هيبات أن يتضعا لأحد من البشر هما : ظل أمن يتقين من عوادي الزمن ، وظل هو يتبعن بنعيم الدنيا . صحيح أن الثراء ييسر لصاحبه وسائل الراحة ونعمات العيش ، لكنه لن يوفر له الأمن من حوادث الدهر . وكلمة « دد » في نهاية البيت جاءت مرادفة لكلمة « هو » ومعطوفة عليها فأكسبت المعنى تأكيداً لجانب الرخاء الذي كن يتبعن في ظله . أما ظل الأمن من نائبات الدهر فهو مبالغة من الشاعر في توفير الحياة المثالية هؤلاء الحسان . ونتيجة لهذا العيش الرغد يقدم معادلة مكونة من شقين متعادلين

هما : علمهن علم اليقين بحياة الرخاء ومرورهن بتجربة الثراء وتربيتن في الدعة والدلال فإذا ما أخبرن عن شيء منها فهن خير من يصف تلك الحياة . وبالمقابل يجهلن كل الجهل حياة الشدة وحال البؤس حيث لم يتغيرن شيئاً من ذلك فيسألن عن هذه الحياة من عاشها من الناس الآخرين . وواضح الإجمال بلبه التفصيل في بيته الرابع : « ليس ظلين ظل أمن من الدهر وظلاً من فوه » .. والتضاد في البيت الخامس بين كلمتي : الإخبار والسؤال ، وبين

البلهنية والجحد .

ومن استحواذ الصنعة على المعاني ما يتمثل في بيته :
سأخرق الخرق بأبن عرقاء كالأ

هبق إذا ما استحجم من نجده

من تكرار مادة « عرق » ثلاث مرات في الشطر الأول من البيت ، مما جعل الأسلوب
ركبكا ، والمعاني فضلة ، والموسيقى مجموعة نظرا لخروج « القاف » من الحلق .
ثم اقرأ معي بيته الذي أقله بست صفات لا فاصل بينها :
تامكه نهده مداعله

لموسمه عزله أجده

علك تجد ما يسوغ له مثل هذا الجحد . سوى غرام الشاعر بتسيق الشكل وهندسة
المقاطع الموسيقية ليستقل كل مقطع بلفظ منفرد ، بالإضافة إلى « الهاءات » الست التي
زادت موسيقى البيت الداخلية انطلاقا وإن كان ذلك على حساب المعنى .
أقول : ليست المبالغة الشعرية مما يتخرج منه أبو تمام ، بل قد يتخذ منها عونا له في التعبير
عما يريد تصويره ، فأبو يزيد معطاء ترعرع نفسه بالكرم حتى يضل كثير الملوك لا في كثيره وإنما
في قلبه . اسمعه يقول :
إلى المفسدى أبي يزيد الذي

يضل غمر الملوك في نده

وحين يصف القوم بالشجاعة والتجملد على المصائب ، لا يفت به الحد عند أخذهم بثأر
قتيلهم وكفى ، وإنما من قوة الاحتمال بما يجعلهم لا يكون ذلك القتل إلا بعد مرور حول
كامل على الأخذ بثأره فيقول :

لا يندبون القتل أو يأتي الحول لهم كاملاً على قوده

وما تلك الحرق في نفس الشاعر التي ما لبثت أن تحولت إلى نار على كبده أعيا عليه
إطفاؤها إلى أن تداركها المدحج بإيثاره فقدر عليها ؟
في غلة أوقدت على كبد السائل تاراً ناعياً على كبده

إنها الصنعة الشعرية التي تخلق بأبي تمام ، ويخلق بها ، في أجواز الفضاء ، ليقنعس ما
شاء له الخيال ، وإن كلفه ذلك إرهاق معانيه ، وإلا فما الذي حيا له تصوير ممدوحه وقد
استوت لديه مقارعة الأبطال في الحرب ومطاردة الصيد في الصحراء ؟ الحرب لها قوتها
وضروبها ولا بد للقائد أن يحيط بما يتناسب وخطورتها بما يتناسب وخطورتها مهما بلغت به
الشجاعة . فكان على أبي تمام أن يضع ممدوحه منها موضع الفكر المتجدد لا موضع المسهر
الذي لا يقيم لها وزناً إلا بالقدر الذي يقيم لمطاردة وحوش الصحراء وحيداً لو أدخل فعل
« بكاد » قبل الفعل « يرى » لاستقام له المعنى أكثر في قوله :

تحضق ألفيأوه على ملك

يرى طراد الأبطال من طرده

ونسجل للشاعر احترامه من الوقوع في هوة محبة من المبالغة إذ يقول :
فهم لو استطاع عند أسعده

خز عضواً من يومه لسعده
بإدخاله حرف الشرط « لو » الذي جعل المعنى مقبولاً بما له من أثر بلاغي في عدم
استطاعة المدوح على خز عضو من جسده وبالتالي عدم تقديمه للناس على سبيل الجود .
وتلك صورة رائعة حيناً نرى رجلاً يمثل الصدر والجوانح رحمة وعظماً إزاء من امتلاء
وصدره وجوانحه حسداً له ، في الوقت الذي يقدر فيه أن يتقم لنفسه منه ، وهكذا يصور
الطائي مدوحه بإضفاء ثوب الحبة على الرحمة التي ملأت صدره وجوانحه :
محملى الصدر والجوانح من

رحمة مملوئين من حسده
ويرى بأن يزد أن يركن للراحة مستنداً لما ورثه من أجداده وأبائه الشم المغاور الذين
شادوا صرحاً عظيماً من الأجداد ، لأنه يسعى للمجد عن طريق الرماح التي تحلق من فوقها
رايات المغاربيين ، والرماح التي لا تحلق من فوقها مثل تلك الرايات فيحقق بذلك مكانة
رفيعة تتداني عن أمدها الجوزاء :
نال بعماري القنا ولايه

مجداً تتداني الجوزاء عن أمده
ولا نعدم أن نرى وأضواء مطلقة على زوايا النفس الإنسانية في شعر أي تمام
— عامة — وقصيدته التي بين أيدينا — خاصة — وهو الذي عرف عنه دقة حسه وعمق
نظرنه ، فمن بين خصال مدوحه خصلة تبرز في بيته القائل :
طل عفاة يحب زائره

حب الكبير الصغير من ولده
أي أنه يحب زائره الذي يطلب معروفه مثل حب الرجل أصغر أولاده ، وأي إنسان بل
أي مخلوق يؤثر أحداً على ولده ؟ حقاً إن فلذة كبد الرجل أعز شيء لديه ، فهذا المدوح إن
بلغ به الحب وإكرام الزائر هذا المبلغ يستحق من الشاعر كل هذا الإطرار ، وقد مثل أحد
القدماء عن أحب أولاده إليه ، فأجاب : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب
حتى يعود . وهكذا استطاع شاعرنا بهذا التعبير أن يصور نفسه مدوحه بأجلى صورها ،
وتحسب أن يوقفنا على لمة من لماته الشعرية المتنازة ، فتلحق على زهير بن أبي سلمى .